توم جونس

Tom Jones

للكاتب الإنجليزي هنري فيلدنج

١٧٠٧—١٧٥٤

يعلم العارفون جيداً أن قصة « توم جونس » التي يطالع القراء خلاصة لها في هذه الصفحات من خير قصة أخرجها مؤلفها للناس . ويقول بعض النقاد إنها أعظم قصة في الأدب الإنجليزي .

و « توم جونس » هذا لقيط ألقته أمه على عتبة بيت واحد من أهل الخير هو مستر « أولورذي » .

ويقول أحد الكتاب ، إن المؤلف قد جعل من هذه القصة ملحمة نثرية ، فهو في النثر كهومير في الشعر

وقد كان « هنري فيلدنج » رجلاً مثالياً في حبه الخير للناس جميعاً .

السيد الماجد « أولورذي » شخصية محبوبة . قد أوتي بسطة في الجسم . وفرة في العقل . وطيبة في القلب . كما أوتي أكبر مساحة من الأرض الزراعية في مقاطعة « سومرستشير » . حيث كان يعيش في عزلة عن الناس . وحيث كانت تؤنس وحدته أخته الآنسة « بردجت » .

وكانت هذه الآنسة قد جاوزت الثلاثين من عمرها . وكانت لا تأسى أبداً على ما فاتها من ملاحة وجمال . وطالما أعلنت أن محاسن المرأة ومفاتنها إنما هي أشراك لها وللآخرين .

وقد أوتيت هذه الآنسة بسطة في العقل . حتى لقد كان يظن أنها تعرف أسرار كل أحبولة ومكيدة وضعت أو سوف توضع في طريق أجمل الجميلات وأفتن الفاتنات من بنات جنسها .

وقد غاب « مستر أولورذي » ثلاثة أشهر كاملة في إنجلترا . ثم جاء الى بيته متأخراً ليلة أن عاد . وتعشى مع أخته عشاء خفيفاً . ثم قام إلى غرفة نومه . وقد نال منه التعب وأضناه .

وإذ هو يرفع غطاء السرير رأى طفلاً ملفوفاً في مُلاءة . وهو ينام على حصيره . وينعم في مكانه ذاك بأسعد نوم وأهنئه .

ولقد كان من الجائز أن تبدو الآنسة « بردجت » أكثر عناية بالطفل الذي عهد إليها به لولا أنّ قلبها كان مشغولاً بالعناية بالكابتن « بليفيل » الذي كان قد نزل ضيفاً عندهم منذ شهور .

وكان الكابتن الظريف يعني عناية غير قليلة بأمر الآنسة « بردجت » ذلك لأنه كان واحداً من أولئك الرجال العقلاء الذين يرون في جمال النساء عرضاً زائلاً . وعارية مستردة .

ولو خُيِّر لاختار أن يعقد زواجه على ما يملك السيد « أولوردي » من عقار موروث ومن مالٍ طارفٍ وتليد . وكان الكابتن في اقتحامه لذلك الحصن من الفضيلة . حصن الآنسة « بردجت » رائده الأناة والتعقل .

وقد اقتضى الأمر أن تمرّ بضعة أيام قبل أن يعلم السيد « أولوردي » بتسلل هذا الحصن .

وسرعان ما اغتفر للخادع خديعته . ذلك لأن أخته كانت قد بلغت يومذاك السنّ التي تدرك فيها ما يضرها وما ينفعها . وتم هذا أن رحب بالكابتن كزوج لأخته .

وبعد انقضاء ثمانية أشهر على زواجهما ولدت السيدة « بليفيل » مولوداً ذكراً . كامل الخلقة . حتى لم يسأ أحد بقول القابلة إنهُ ولد قبل تمام حمله بشهر .

ولو أنّ مولد وارثٍ — ولادة هذه الأخت المحبوبة — كان مصدر سرور وغبطة لمستر « أولوردي » . غير أن حبّه للقيط الصغير قد زاد ولم ينقص .

ومن عجب أنّ السيدة « بليفيل » قد بدأت تشاطر أخاها حنانه . وبدت مغرمة بأن تصحب « توبي » كما بدأت تبدي قلة مبالاة بأمر ولد مستر « بليفيل » حتى لقد أثار هذا الأمر قلق زوجها .

والحق أن هذا الميل منها لطفل اللقيط مضافاً إلى مسائل أخرى قد كانت سبباً في أن ينشب بينها وبين زوجها خلاف قد أحنقه وأثار حفيظته . حتى أدّى به الغضب يوماً إلى أن يصيبه الفالج . وهي مصيبة قابلتها الزوجة بالتجمّل والصبر .

وقد بدأت حي منذ ذلك الحين تمنح العناية كلها بالقيط . وأصبح أمر تفضيله على ولدها يثير عدم الرضا عند الناس كلهم باستثناء واحد منهم هو مستر « أولوردي » الذي ما برح يولي اللقيط كل عناية .

وقال اللائمون إنه لعجب أي عجب أن يأذن السيد الماجد لصبي لقيط أن يترقى مع ابن أخته . وقالوا إن هذا سوف يتأثر بالقدوة السيئة فتسوء أخلاقه وتنحط . ذلك لأن « توماس » قد بدت عليه منذ الصبا الباكر ألوان من الرذيلة . وبخاصة السرقة . فهو قبل أن يبلغ السادسة عشرة من عمره كان قد سرق إحدى الحدائق . ثم أتبعها بسرقة بطة . ثم أعمل بعد ذلك مشرطه في جيب مستر « بليفيل » .

ومما هو جدير بالذكر أن « بليفيل » كان رجلاً لا يشرب الخمر . وكان تقيا . وكان متزنا . وهي صفات حببته إلى كل من عرفه .

والخادم الوحيد في العائلة الذي أبدى اهتماماً بصحبة « توم جونس » كان « جورج سيجرم » حارس الصيد . وهو رجل في خلقه أخلال .

وصحب الولد والحارس سيدهما في رحلة صيد . واتفق أن سرباً من طائر الحجل قد هبط في أرض جار للسيد اسمه « وسترن » فأمر السيد « أولوردي » حارس صيده أن لا يتخطى حدود أرض الجار ، وأنذره بالحرمان والطرد إن عصى أمره . ولكن الصبي اللقيط قد عرف كيف يقنع الحارس بضرورة التخطي . فأصغى لمشورته ودخل أرض الجار وأطلق على الطير الرصاص

فلما جاء صاحب الطير يشكو بادر السيد «أولوردي» الى طرد الحارس ثم عزر ابنه في أعهاد . وعنفه ولكن في غير غلظة .

ثم نبتت صداقة وطيدة بين « توم » والسيد « وسترن » الذي كان يعجب بمهارة الصبي في ركوب الخيل حتى لقد أعلن السيد إعلاناً صريحاً في ساعة من ساعات سكره أنه يتمنى لو كان له ولد قد أوتي مثل ما أوتي « توم » من البراعة والذكاء .

ثم أصبح « توم » ضيفاً مقيماً لا يتخلف عن مائدة السيد « وسترن » وحتى لقد أصبح الآمر الناهي في أمر سلاح السيد وأمر خيله وكلابه .

وعندئذ أجمع «توم» أمره على أن يستمين بهذه المنزلة التي بلغها في قلب «السيد» وسترن» ويشفع عنده لصاحبه حارس الصيد الذي أراد أن يلحقه كخادم في بيت «وسترن» ثم رأى أن يستعين في ذلك أولاً ببنت «السيد» الوحيدة .

وكانت هذه الفتاة واسمها «صوفيا» مليحة الشكل . وإن كان يعيبها بعض القصر . ولم يكن «توم» مولعاً بحبها . ذلك لأن هواه كان مع «مولي سيجر» صغرى أخوات حارس الصيد .

وبينما الأمور كما وصفنا إذ جاء «توم» ذات أصيل الى حيث كانت «صوفيا» تجلس وحيدة وبدأ ينبئها في لهجة الجد . وبعد اعتذار قصير أنه في حاجة الى معونة تسديها اليه . فظنت أنه يريد أن يحدثها حديث غرامه بها . ذلك لأن لونها قد امتقع وتولتها رجفة . وتمطلت لغة الحديث ولكن «توم» لم يمهلها إذ بدأ يتوسل اليها بأن تمد يد المعونة لحارس الصيد .

فلما أفاقت «صوفيا» من غشيتها قالت — وعلى فمها ابتسامة حلوة — أهذا كل ما كنت ترجوه مني بعد هذا الجد البالغ في القول ؟ ألا فاعلم أني قد استجبت لندائك !

وفي الأسابيع التالية كان «توم» يذهب كل يوم للصيد مع «السيد» ثم يعود معه الى البيت حيث كانت «صوفيا» تسلط على الشاب كل أشعة سحرها وفتنتها . فأصبح يبادلها هو — من حيث لا يدري — حبًّا بحب ولو انه كانت تعتريه بين آونة وأخرى نوبة احساس بحب «مولي سيجر» ولو انه كانت تطوف بخاطره ذكرى العهد الذي تعاهدا عليه فيعرف أن له حبيباً في مكان غير هذا . وقد جمعت رحلة الصيد يوماً بينها وبين أبيها وبين صاحبها . وبينما هم عائدون قفز حصانها على حين غفلة من فرط الخفّة والمرح . فجرى «توم جونس» وكان منها غير بعيد وأمسك بلجام حصانها . ولكن الحيوان المتمرّد انصب الشكيمة قد ألقى بحمولته الغالية وراء ظهره فتلقاها «جونس» بين ذراعيه . وفي تلك اللحظة خطر بباله لأول مرة أن لن يهدأ باله حتى تكون «صوفيا» ملكاً له .

وقد شجّعته على هذا الطموح وصيفة الفتاة واسمها «مسز أونر» .

وطفق صاحبنا — وقد أضنته لواعج الحب الذي كان لا يجرؤ على أن يبوح به — يمشي في الخلاء ويطرف ما يطوف بين الطرق المنعزلة حيث كان يشكو تباريح الجوى .

وقال يوماً وهو يناجيها : لوددت أنّ السماء استجابت لدعائي فجعلتك بين ذراعيّ ! وإني أرى السعادة في أن يجمع الدهر بيننا وأرى الشقاوة في أن يفرّق بيننا الدهر .

وكانت أخت السيد « وسترن » على يقين من أنّ « صوفيا » قد تيمها الحب فباتت نضو مقام وأليف شجن . وانّ الذي أشرب قلبها حبّه هو السيد « بليفيل » ثم ما لبثت أن صارحت أخاها بما يجول في وهمها .

فما أن سمع هذا القول منها حتى قال : لم أكن أسعد يوماً في حياتي من هذا اليوم الذي سمعت فيه هذا النبأ . ذلك لأن أرضنا وأرضه متجاورتان . وكأن قد ربط بين أرضه وأرضي من قبل رباط زواج .

ولكن بعد أيام قلائل كشفت « صوفيا » لعمّها عن سرها . وقالت لها ان هواها مع مستر « جونس » . فهاج لذلك هائج السيد « وسترن » وثار ثائرة . ثم ذهب وقد كاد الغيظ يقتله الى السيد « أولورفي » فاستلّ هذا حقده وأزال امتعاضه وأكد له أن لن يتمّ هذا الزواج أبداً وأن « صوفيا » لا مفرّ لها من أن تتزوج مستر « بليفيل » . ثم زاد على هذا بأن نادى هذا الغر الدعي الطامع في يد « صوفيا » وهو « جونس » وأعطاه بعض المال وأمره بأن يغادر البيت لتوه . وأن لا يعود إليه أبداً .

وخرج « جونس » ووجهته مدينة « بريستول » والحزن يكاد يقتله . ذلك لأن الدهر قد حال بينه وبين تلك التي أحبّ . كما حال بينه وبين ذلك المحسن الذي كان به حفيًّا . فأصبح اليوم لا يأسى على شيء . ولا يبالي بما تجيء به الليالي .

وبات الليلة الأولى في خان حيث لقي جماعة من الجند فربطت بينهم وبينه أواصر الصحبة فقام بسداد نفقة طعامهم . ثم دارت كؤوس الخمر فحلّت من ألسنتهم ما انعقد . ولما جاء دوره ليشرب نخب من أحبّ ذكر — في غير تردد — اسم « صوفيا ويسترن » فقال الجندي حامل العلم : وإني أعرف هذه الفتاة — وكان قد رآها في مرفص مع عمّها — وأعرف أنّ والدها يملك أرضاً في « سومرستشير » كما أعرفه أن نصف شباب مدينة « باث » قد شغفوا بها حبًّا .

فصاح « جونس » في فورة الغضب : إنك أوضع مخلوق على ظهر الأرض ! وما إن قال

هذا القول حتى رماه الجندي بزجاجة ملئت خمراً فأصابت رأسه فخرّ مغشيّاً عليه .

ثم غادر الجنود الخان بعد أيام . وظلّ « جونس » يهذي وهو في فراش المرض . وكان يعالجه طبيب جرّاح . ولم يكن هذا الجرّاح سوى « بارتردج » الذي طرده السيد « أولورذي » من خدمته .

« وبارتردج » هذا رجل كفء متعدد نواحي الكفاءة . فهو فوق إدمانه القراءة . حلاّق ممتاز ، وله في الطب براعات .

وهو اليوم كصاحبه « جونس » لا عمل له إلاّ الطواف بالطرقات .

ولما برىء الفتى من جرحه خرج هو وصاحبه ووجهتهما « جلوستر » ومنها إلى « أبتون » فلما صارا على مقربة منها أثارت دهشتهما صرخات عاتية تخرج من إحدى الغابات . فجرى « جونس » فألفى امرأة نصف عارية . يضربها رذل من الأرذال . ويحاول أن يعلقها في جذع شجرة . فضربه « جونس » ضربة شديدة . فلما تبيّنه عرف فيه — والدهشة تغمره — الجنديّ الذي ضربه من قبل . وبعد أن تبادلا اللكمات جرى الجندي واختفى بين الأشجار . وحلّ « جونس » وثاق المرأة التعسة وأخذها إلى خان قريب .

فلما أفاقت المرأة — واسمها « مسز وترز » شكرته أجزل الشكر . وكانت هي امرأة نصفاً فيها إغراء وفتنة . وفيها حلاوة وملاحة . وعلم « جونس » أنها كانت زوجة لضابط اسمه « وترز » فهجرته لتهرب مع ذلك الجندي الذي كان يضربها .

ثم أكدت هي هذا القول وأضافت إليه أن ذلك الجندي كان قد أغراها بالهرب . وبدا أنه فعل ذلك ليقتلها في مكان منعزل، ثم ينزع عنها حليّها وجواهرها .

فلما سمع « جونس » حديثها وقف منها — وقد شغفها حبّاً — موقف المشفق عليها الراثي بها . ثم تواعدا على أن يزورها في غرفتها إذا أقبل الليل .

وفي ذلك الحين كانت « صوفيا » قد برّح بها الألم . فهي لم تفقد حبيبها « جونس » فحسب بل أصبح لزاماً عليها أن تبدي الرضا لمستر « بليفيل » الذي كانت تعف نفسها رؤيته .

وقالت لوالدها . وهي ترجوه وتلحّ في الرجاء . لست أستطيع العيش مع مستر « بليفيل »

فان أجبرت على الزواج منه أدّى ذلك إلى قتلي . فقال أبوها وهو يقذف بها بعيداً عنه : فلتموتي إذاً وليلعنك اللاعنون ! ألا فاعلمي أني قد عقدت العزم على هذا . فان لم تتبلي فلن أعطيك من مالي دانقاً أو سحتوتاً . حتى لو رأيتك تموتين جوعاً في عُرض الطريق !

وبعد أيام قلائل قالت « صوفيا » لوصيفتها : لقد عزمت أن أغادر بيت أبي هذه الليلة. وإن لي في لندن قريبةً من ذوات الجاه . ولا شك أنها سوف ترحب بمقدمي الترحيب كله.

فلما جنّ الليل خرجت السيدة والوصيفة يسيران على الأقدام ، ثم جمعتهما صدفة عجيبة برجل قال إنه دلّ « جونس » على الطريق المؤدية إلى « بريستول » ، فلما علمت « صوفيا » بهذا تقدمته جنيهاً لكي يسير وإياها في ذلك الاتجاه .

وأدّى البحث الدقيق إلى معرفة اسم الخان الذي نزل فيه « جونس » ثم بلغت هي ووصيفتها ذلك الخان في الصباح الباكر .

ودار الحديث بين الوصيفة وصاحبة الخان فأطنبت هذه وبالغت في وصف جمال فتىً غريب نزل في خانها ، فأيقنت الوصيفة أنها تعني بهذا القول « جونس » .

ثم أشارت ربة الخان إلى مكان « بارتردج » صاحب « جونس » وطبيبه فأخبرها هذا أن « جونس » لا يزال مقيماً في الخان ، ولكنه قد أوى إلى فراشه . فقالت الوصيفة إذاً فأيقظه حالاً ، فان سيدتي تريد التحدث اليه ، وهو لا شكّ يسره السرور كله أن يتحدّث اليها .

ثم أعطت « صوفيا » قرّوها الى الفتاة وقالت : خذي هذا القرو فضعيه في غرفة مستر « جونس » ، واذا كان الفراش خالياً فضعي القرو فوقه .

فلما عاد مستر « جونس » إلى فراشه صرخ صرخة عالية جاء على إثرها « بارتردج » فسأله : من جاء بهذا القرو إلى هنا !

فأجابه : لقد رأيته على ذراع إحدى المرأتين التي كانت تريد أن تتحم غرفتك لو أذنت لها بذلك .

فصاح « جونس : وأين هما ؟ .

— إنهما الآن على بعد أميال وأميال .

فصرخ « جونس » صرخة مدوية ذعر لها «بارتودج» المسكين وجن جنونه ، وطلب اليه « جونس » أن يأتيه بالخيل ، ثم ارتدى ملابسه في مثل لمح البصر ، وطفق يجري في فناء الخان مسرعاً ، وإذا بيد تمسك به ، وإذا به يجد نفسه وجهاً لوجه أمام السيد «وسترن» الذي بادره بقوله : ها قد وجدنا الكلب ، وأنا الضمين بأن الكلبة قريبة الدار من هنا .

واحتج « جونس » على هذا القول وأنكر معرفته بمكان الآنسة . ثم أخلى السيد سبيله بعد أن أشبعه سبًّا وشتماً . ثم أمر باعداد الخيل لتقله والقس « سبل » الذي جاء في صحبته . ثم سارا قُدُماً للبحث عن الفتاة .

وإذ علم من خادم الخان أنها قد عبرت نهر «سفرن» فقد أسرع في اجتياز الجسر القائم على ذلك النهر : وهو يقسم بأنه سوف ينتقم منها شر انتقام . وما إن سار ميلين حتى ألقى بنفسه في حيرة أمام مفترق الطرق .

وحاول القس أن يهوّن من أمر المصيبة . فصاح « السيد » صيحة منكرة وهو يقول ألا تعساً لتلك الفتاة النحسة !

وفي صباح اليوم التالي أيقن «السيد» أن لا فائدة ترجى من البحث واقتفاء أثر الفتاة وعاد إلى « سومرسِتشير » . وكان « جونس » أكثر توفيقاً في بحثه عن ضالته المنشردة . وهو لم يعرف طعم الراحة . ولم تعرف عينه طعم الكرى . وسار مجدًّا في أحد الدروب التي تؤدي إلى « دافنتري » « فدنستابل » « فسانت البانس » . وهناك عرف لسوء حظه ونكد طالعه أن « صوفيا » قد سارت في طريق لندن .

ثم ذهب إلى العاصمة الكبرى يحدوه أمل ضعيف في العثور بها في بيت من بيوت العظماء التي كان يلم بها كل يوم غير آبه لما يلقاه من عنت الخدم وتجرفهم

ثمَّ بدأ يغشى المعارض والأندية على أمل أن يلقاها هناك .

وكان جماله حديث القوم . وكم من سيدة جميلة أبانت له بلغة العيون التي هي أبلغ من لغة الكلام . وأكثر إفصاحاً أنها ترحب الترحيب كله بكل ما يبديه من أمارات الحب وآياته .

وكان « جونس » يستعصم — في شجاعة بالغة — من كيد النساء ، حتى لقي ذات ليلة — في حفلة مقنعة — لادي « بلاستن » الفاتنة التي غلبته على أمره . فكان يزورها في

بيتها كل ليلة . وذات مساء ، وكان قد ذهب إليها قبل موعد ذهابه ، أدخله الخدم غرفة الجلوس إنتظاراً لمجيء اللادي

ومن عجب أنه رأى وهو ينظر في المرآة خيال حبيبته « صوفيا » ! فقال : إنها هي بعينها وبذاتها .

وكانت هي صاحبته حقاً ذلك أن السيدة التي كان قد عرفها في المدينة هي السيدة « بلاستن » التي استقبلتها في بيتها . والتي كانت تنوي أن تزوجها من أحد اللوردات الشبان الذي فتن بسحر جمالها .

وما أن رآها « جونس » حتى خر راكعاً وقال : غفرانك يا آنستي ! فقالت وقد أخذ منها العجب . وأي غفران تريد بعد الذي تممته ؟ فأجاب : لست أدري ماذا أقول . وكيف أعتذر . وأنا الشقي ؟ وإني لأستاهل أن يمحى إسمي من ذاكرتك إلى الأبد بصد وصمة « أبتن » .

فرتعت « صوفيا » والأرض من حولها تكاد تميد . وكان وجهها أشد بياضاً من الثلج ، وقلبها دائم الخفقان .

واستطردت تقول في صوت هو إلى الهمس أقرب . كيف أرضى بتجريسي والتسميع بي ؟ وكيف أرضى بأن يكون إسمي مضغة في أفواه الأوباش والأرذال ؟ وكيف أرضى أن تجهر بالقول وتفخر بما منحه إياك ذلك القلب الذي غفل عنه حراسه ؟ بل كيف أرضى بأن أسمع أنك كنت مجبراً على أن تهرب مني وأن تنسى قصة حبي ؟

وقد أدهشه سماع هذا القول منها ذلك لانه لم يرتكب يوماً في حقها إثماً ولا ذنباً . فلما حقق الامر علم أن الذنب في هذا التجريس يرجع إلى ثرثرة صاحبه « بارتردج » في كل حفل وناد . وأقسم ليقتلنه جزاء هذه الثرثرة . فحالت بينه وبين قتله وأيقنت براءة صاحبها

فلما عاد الماء إلى مجراه وحل السرور مكان الحزن . نطق ببعض كلمات بدت لها كأنها اقتراح بزواج . فقالت : لولا أن واجبي يا سيدي نحو أبي يقتضيني أن لا أتبع هوى نفسي لكان الفقر بين يديك خيراً ألف مرة ومرة من الغنى والثراء بين يدي رجل آخر .

ثم أعدا العدة للقاء آخر . وغادر « جونس » البيت إلى حيث يقيم : وكانت صاحبة البيت الذي نزل فيه سيدة ظريفة ليست بالفقيرة ولا بالغنية . وهي تعيش على دخل سنوي يجيئها من السيد « أولورذي » .

ولما كانت تعرف ما بين هذا السيد وبينه من علاقة فقد حادثته يوماً تقول : « إن السيد « أولورذي » قد كتب إليها يقول إنه آت إلى لندن عما قريب . وأنه يطلب إليها أن

تهيء له مكاناً للإقامة وأضاف إلى ذلك قوله إن السيدة « بليفيل » قد ماتت منذ قريب. وإن السيد « بليفيل » في حاجة إلى الترفيه عن نفسه في مكان بعيد عن كل ما يذكره بالفجيعة. وأنه سوف يصحب معه « بليفيل الصغير ».

وكذلك السيد « وسترن » وقد بدأ يدب إلى قلبه اليأس من العثور على ابنته الغائبة قد جاءه كتاب من سيدة ترود بيوت الأثرياء إسمها « مسز فتز باتريك » بينها وبينه صلة بعيدة من القرابة كما أن بينها وبين « لادي بلاستون » صلة ود وثيق.

فلما طال ترددها إلى بيت « اللادي » عرفت قصة « صوفيا وجونس » معرفة كاملة، أما وقد شغفت « مسز باتريك » ببطل قصتك فقد طلبت في كتابها إلى السيد « وسترن » أن يحول بين هذا الفتى وبين تلك التي تزاحمها في حبه.

وقد أثار الريبة والشك في قلب زوجها ما أحس به من سعيها في إغراء « جونس » بأن ينقض عهد الهوى لحبيبته.

والتي مستر « فتز باتريك » الفتى « جونس » في الطريق. وسرعان ما سلت السيوف من أغمادها، وسرعان ما أصيب « فتز باتريك » بطعنة من سيف « جونس ». فسيق هذا الى السجن ليحاكم على جريمة القتل.

وبلغ النبأ سمع مستر « أولورذي » يوم وصوله إلى بيت « مسز ميلر » ففزع فزعاً شديداً. ولكنه قال: إن فاجراً غوياً يسير منه السيرة لابد أن تكون نهايته الى المشنقة! ولكن « مسز ميلر » أبت أن تصدق أن « جونس » كان مجرماً. ذلك لأنها كانت تحبه الحب كله لما كان يبديه من حنان بالغ نحو أطفالها. فأجمعت أمرها على أن تتقصى الأمر. وأقسم « جونس » أن مستر « فتز باتريك » هو الذي جرد سيفه أولاً. وإنه رد العدوان دفاعاً عن نفسه. ولكن رجلين من النوتية كانا يمشيان في الطريق شهدا بأن « جونس » كان المعتدي.

وسارت الأمور في مجراها إلى أن جاءت « مسز وترز » التي كانت عشيقة « جونس » في مدينة « أبتن ». وقالت لمستر « أولورذي » إن ذلك اللقيط الذي قذف به في عرض الطريق لم يكن غير ابن أخته هو!

وزادت الأمر إيضاحاً فقالت إنك لا بد تذكر أن مستر « سمر » وهو ابن صديقك. وهو الذي قمت بنفقات تعليمه والذي أقام في بيتك عاماً وكأنه ولدك. هذا الولد قد ولدته أختك!

ثم جاء محامي مستر « أولورذي » فقال إنه قد رشا الشهود بتحريض من مستر بليفيل.

فقال له أولوردي : أظنك كنت فاعلاً غير هذا لو عرفت أن مستر « جونس » هو ابن أختي .

قال : الحق ما كنت أعرفه هذا . ولكني ظننت — وقد سكت عن موضوع الخطاب — إنك تريد أن تبقي المسألة سراً من الأسرار .

فقال « أولورثي » مندهشاً : أي خطاب تعني !

— الخطاب الذي ناولتني إياه أختك وهي تجود بروحها . فقد أمسكت بيدي وقالت : إعط هذا الخطاب لمستر « أولوردي » وأنبئه أن مستر « جونس » هو ابن أخته فناولت الخطاب وأبلغت الرسالة إلى مستر « بليفيل » وقد قال لي إنه قد أدى الرسالة.

فوقف مستر « أولوردي » وقد دارت به الأرض الفضاء لهول ما سمعه من أنباء هذه الخطيئة الكبرى . فلما أفاق أرسل إلى ابن أخته الذي جاء وامتقع لونه وتولته رجفة . فأنبأه أنه قد جمع شيئاً لنفسه نصيباً معلوماً . له أن يتقاضاه . وعليه أن لا يراه بعد ذلك مرة أخرى .

ثم ... الجريح فأعلن أن مستر « فتز باتريك » قد جاوز مرحلة الخطر . فلما التأمت جراحاته اعترف بأنه هو الذي بدأ برفع السيف . ولذلك فقد أطلق سراح « جونس »

أما السيد « وسترن » الذي عاد أخيراً الى المدينة . والذي ضم ابنته إليه فقد دهش لنبأ القائل أن « جونس » هو ابن أخت « اولوردي » . ثم بعث إليه من يجيئه به ... جاء قال ... عصبياً : أيها الصديق القديم ... إني ليسرني السرور كله ان أراك ! ... ان ننسى الماضي بخيره وشره .

ثم سارا معاً الى بيت « وسترن » . فلما دخلاه دفعه دفعة خفيفة وطلب إليه ان يذهب إلى حجرة « صوفيا » لكي يتناجيا . وبعد قليل ذهب اليهما وهو يسأل « جونس » هل حددت ... موعد الزفاف ؟

فقالت صوفيا : ما الذي تريد مني يا أبي أن أعمله ؟

— أريد أن تتخذيه زوجاً منذ الآن !

قالت هي : لك السمع والطاعة ...

فركع « جونس » . وقد ذهل من فرط السرور . اما « وسترن » فقد طفق يرقص ويقفز في الغرفة جيئة وذهاباً . ثم توقف فجأة وقال : أريد ان ألقى « اولوردي » فأين مكانه الآن قاتله الله ؟

ثم خرج يفتش عنه . تاركاً الحبيبين ينعمان بلذة الدقائق الاولى من حياة ناعمة سعيدة .

عن الانجليزية مبارك ابراهيم